المغرب في مواجهة التوسعية العثمانية

ق١٦ - مطلع ق١٧

أ. د. محمد علي داهش(*)

القسم الأول

كان المغرب في فترة خضوع الجزائر للسيادة العثمانية تحكمه الأسرة الوطاسية (١٤٧١ ـ ١٥٥٤) التي عاشت حالة من الضعف والانقسام والعجز عن فرض السلطة المركزية على جميع أنحاء المغرب، أو مواجهة الاعتداءات والاحتلالات البرتغالية والأسبانية التي استعرت منذ أواخر القرن الخامس عشر وتصاعدت في مطلع القرن السادس عشر.

إن العجز الوطاسي قاد إلى ظهور حركات شعبية مجاهدة في مناطق متعددة من البلاد نذرت نفسها للدفاع عن الثغور المغربية ومواجهة التحديات البرتغالية والأسبانية. وأسهمت تلك الأوضاع في بروز قيادة شعبية في الميدان أهلتها مكانتها الدينية والاجتماعية لتلعب الدور القيادي في المغرب منذ مطلع القرن السادس عشر، وقد تمثلت تلك القيادة بالأشراف السعديين الذين ظهروا في الجنوب المغربي.

في عام ١٥١٠ تحرك السعديون بقيادة الشريف أبي عبدالله محمد القائم بأمر الله (١٥٠٩ ـ ١٥١٧) لمواجهة المؤسسة الحاكمة الضعيفة والعاجزة للعمل على

(*) قسم التاريخ ـ كلية الآداب - جامعة الموصل ـ الموصل - العراق

قيادة حركة الجهاد لتحرير موانئ الجنوب وتحقيق وحدة البلاد وتعبئتها لمواجهة التحديات المستمرة للبرتغاليين والأسبان. وبعد وفاته عام ١٥١٧ خلفه في الحكم أبو العباس احمد الملقب بالأعرج (١٥١٧ ـ ١٥٣٩)، فواصل عمليات التحرير، فيما استمر الصراع السعدي ـ الوطاسي في عهد خلفه محمد الشيخ حتى منتصف القرن السادس عشر.

وخلال الفترة ذاتها، كان العثمانيون قد فرضوا سيادتهم على مصر منذ عام ١٥١٧، وامتد نفوذهم إلى أجزاء واسعة من المشرق العربي حتى برقة (ليبيا). وقد وجد الوطاسيون في الدولة العثمانية قوة إسلامية فتية قادرة على مساندتهم للوقوف بوجه البرتغال والأسبان، ومن ثم حمايتهم من السقوط، فمالوا إلى الاستعانة بها. وقد كان للبرتغاليين والأسبان حضورهما في المياه العربية من الخليج العربي إلى البحر العربي والبحر الأحمر وكذلك في البحر المتوسط حتى المحيط الأطلسي. وكان ذلك الحضور ـ وفي ظل عجز القوى المحلية عن القضاء عليه ـ مثار تهديد خطير بحرا وبرا لاستراتيجية الدولة العثمانية. لذا فان الاستعانة بها ، تحقق أهداف الطرفين على الرغم من بعد المغرب عن سخونة الأحداث التي انشغل بها العثمانيون في المشرق العربي وأوربا في الفترة نفسها.

سعى الوطاسيون بعد أن فرض العثمانيون سيادتهم على مصر إلى التقرب منهم. وعليه فقد أرسل السلطان المغربي أبو عبدالله محمد الثاني الوطاسي سفيره الحسن الوزاني إلى القاهرة، مهنئا السلطان العثماني سليم الأول، وطالبا المساندة العثمانية، لكنه لم يتلق ذلك[1]. ويبدو أن ذلك راجع إلى انشغال العثمانيين ومنذ عام ١٥٢١ في فتوحاتهم في أوربا، وفي مجابهة البحرية الأوربية في البحر المتوسط،

---

(١) عبد الكريم غرايبة: تاريخ العرب الحديث، الأهلية للنشر والتوزيع، (بيروت، ١٩٨٢)، ص٣٧.

إلا أن استقرار السيادة العثمانية في الجزائر عام ١٥٢٩، وتصاعد الصراع البحري مع الأسبان وغيرهم في البحر المتوسط، وفي طرابلس الغرب وتونس، أوحى للعثمانيين ضرورة دعم القوى المحلية لتكون سندا لهم في مواجهة الاحتلال والحضور الأسباني والبرتغالي في غربي البحر المتوسط.

بدايات التدخل العثماني في شؤون المغرب

بدأ الدعم العثماني للوطاسيين منذ عام ١٥٤٥، وقد شمل ذلك الدعم الأسلحة والمدافع والذخائر الحربية التي ضمت آليات لحصار المواقع الأسبانية والبرتغالية. وقد أرادوا من وراء ذلك كسر شوكة البرتغال والأسبان ومنعهما من تحقيق خططهما لاحتلال المغرب الذي أرادوه لهم أسوة ببقية الأقطار العربية. ولما لم يكن بمقدورهم تحقيق ذلك في تلك الفترة، فقد مدوا الوطاسيين بالأسلحة للقيام بهذا الدور، كما انهم سوف يحصلون بالنتيجة على التأييد الشعبي، ويؤلب علماء الدين ذوى النفوذ الكبير في المغرب، للدعاية لهم، وبما يخدم تسهيل هيمنتهم على المغرب وقبول المغاربة للسيادة العثمانية[٢]. وقد ظهرت آثار الدعم العسكري العثماني في الفترة اللاحقة على صعيد المواجهة أو في انتقال الأسلحة الحديثة والتنظيم العسكري والإداري للعثمانيين في المغرب.

وفي الوقت الذي كانت الإمدادات العسكرية العثمانية تصل إلى المغرب، كان الصراع الوطاسي – السعدي الذي بدأ منذ عام ١٥٢٣، قد بلغ ذروته عام ١٥٤٩. فقد دارت الدائرة على الوطاسيين، وتمكن محمد الشيخ السعدي (١٥٣٩ – ١٥٥٧) من إنهاء حكم أبى حسون الوطاسي حيث فرّ من فاس إلى مليلية ثم إلى الجزائر

(٢) محمد الغربي: بدايات الحكم المغربي للسودان الغربي، دار الرشيد للنشر، (بغداد، ١٩٨٢)، ص٨٩-٩٠.

الخاضعة للسيادة العثمانية. وبدأت الوحدة الوطنية السياسية في المغرب بدخول السلطان محمد الشيخ السعدي، فاس في العام نفسه.

إن الأحوال الداخلية للمغرب لم تستقر بنهاية حكم الوطاسيين، فقد التجأ أبو حسون إلى مليلية التي احتلتها الأسبان منذ عام ١٤٩٧، واستعان بالإمبراطور الأسباني شارل الخامس عدوّ بلاده، وتنازل للأسبان عن مدينة بادس وجزيرتها لكنه لم يحظ بدعم الأسبان. ويبدوا أن قدرة الأسبان للسيطرة على سواحل المغرب، حالت دون تقديم عون عسكري لأبي حسون. ومع ذلك لم ييأس أبو حسون من الاستعانة بأعداء بلاده، فتوجه نحو البرتغال، لكن ملك البرتغال جيان الثالث نصحه بالالتجاء إلى العثمانيين والاستعانة بهم. والواضح من ذلك هو الإيقاع بين المغرب والدولة العثمانية لأضعاف نفوذ القوتين الإسلاميتين، وتقوية مواقعهم (والأسبان) في سواحل المغرب العربي.

توجّه أبو حسون الوطاسي إلى الجزائر، وكان عليها آنذاك الوالي العثماني صالح رايس. واستطاع إقناعه بمساعدته للقضاء على السعديين واسترجاع عرشه لقاء الخضوع للسلطان العثماني سليمان القانوني، ومساندة الدولة العثمانية في مواجهة الأسبان والبرتغال. وعليه ، فقد جاءت الفرصة للعثمانيين لاستكمال فرض سيادتهم على المغرب العربي بعد أن اخضعوا الجزائر عام ١٥٢٩، وبدأ الاستعداد العثماني للقضاء على السلطان المغربي محمد الشيخ وضم المغرب إلى دائرة نفوذهم[٣].

---

(٣) انظر تفاصيل الأحداث:

عبدالوهاب منصور: إعلام المغرب العربي، المكتبة الملكية، (الرباط، ١٩٧٩)، ج١، ص٤٠٩ _ ٤١١.

محمد الهادي العامري: تاريخ المغرب في سبعة قرون، الشركة التونسية للتوزيع، (تونس، ١٩٣٤)، ص٢٢٢.

من التوتر السياسي إلى الصراع العسكري

في منتصف القرن السادس عشر، اصبح المغرب وجها لوجه مع العثمانيين في الشرق، والأسبان والبرتغاليين في الشمال. وقد فكر السلطان المغربي محمد الشيخ منذ البداية في التعايش السلمي مع العثمانيين على أمل قيام تعاون بين الجانبين لمواجهة الخطر البرتغالي والأسباني المشترك. وتكشف تقرير الحاكم الإسباني في وهران الجزائرية Comte d' Icaudete إلى حكومته عن المراسلات بين السلطان المغربي ووالي الجزائر يقترح عليه القيام بعمليات مشتركة لتحرير وهران والمرسى الكبير من الاحتلال الأسباني. كما بعث بهدايا إلى طرغود باشا أمير البحرية العثمانية في البحر التوسط، واقترح عليه الدخول في حرب ضد إسبانيا. ويتبين من الرسائل أن السلطان المغربي كان يهدف إلى قيام تعاون مشترك ضد الأسبان والبرتغاليين لتحرير المناطق المحتلة في الجزائر والمغرب، مع الاحتفاظ بكامل السيادة للمغرب. إن التحالف مع العثمانيين يفرض عليه التبعية للسلطان العثماني سليمان القانوني والاعتراف به " أميرا للمؤمنين " وهو ما كان يرفضه السلطان المغربي، وأنه كان يلقب نفسه به، لشعوره بأهليته لحمل اللقب

- محمد بن علي البخلاخي: التعريف بجزيرة بادس بالريف، مطبعة سوريا، (طنجة، بلا)، ص٢١ _ ٢٢.

مارمول كرفجال: أفريقيا، ترجمة محمد زنيبر، مكتبة المعارف، (الرباط، ١٩٨٤)، ص ٤٨١ _ ٤٨٢.

شوقي الجمل: المغرب العربي الكبير في العصر الحديث، مكتبة الانجلو المصرية، (القاهرة، ١٩٧٧)، ص ١٦٩ _ ١٧٠.

إبراهيم شحاتة حسن: أطوار العلاقات المغربية _ العثمانية ١٥١٠ _ ١٩٤٧، منشأة المعارف، (الإسكندرية، ١٩٨١)، ص ١٢٢ _ ١٢٣.

انطلاقا من نسبه الشريف لذا فقد فضل الابتعاد عن العثمانيين(٤).

ويبدو أيضاً، استحالة قبول السلطان العثماني سليمان القانوني بتبعية اسمية للمغرب في وقت بلغت الدولة العثمانية أوج عظمتها واتساعها وأصبحت قائدة العالم الإسلامي آنذاك، واصبح سلطانها " خادم الحرمين الشريفين ". ومن جهة أخرى، كان ثمة فرصة للتبعية الكاملة للمغرب وجدت من داخل المغرب نفسه ممثلة بابي حسون الوطاسي والذي كان ما يزال يتمتع بشعبية في العاصمة فاس وبعض المدن المغربية. كما كانت ثمة محاولات عثمانية لإثارة قطاعات من الشعب المغربي ضد سلطانه منذ تلك الفترة.

ففي عام ١٥٥٠، اتخذ العثمانيون من مدينة تلمسان ذات الموقع الاستراتيجي القريب من الحدود المغربية، قاعدة للوثوب نحو المغرب. وهيئوا العمل للانقضاض على المغرب، فقاموا بالاتصال برجال الطرق الصوفية – لمعرفتهم بتأثيرهم في الشعب – والاتفاق معهم على إلحاق المغرب بالدولة العثمانية. وقد علم السلطان المغربي بمساعي العثمانيين. فأسرع بالبطش بالطرق الصوفية لتوحيد الموقف الشعبي المغربي وراءه، وتجنيد كل قوى المغرب للدفاع. لذا بدا التوتر يتصاعد بين الجانبين حتى وصل إلى الصدام العسكري.

توجه السلطان محمد الشيخ نحو تلمسان – مفتاح الجزائر – بعد أن وفد عليه أعيانها وأبدوا استعدادهم للانضواء وراءه كرها بالعثمانيين. وبعد شهور من المناوشات والقتال استطاع دخول تلمسان في ٩ حزيران – يونيو – ١٥٥٠ (٥).

---

(٤) عبد الكريم: المغرب في عهد الدولة السعدية، شركة الطبع والنشر (الدر البيضاء، ١٩٧٨)، ص ٧٥ _ ٧٦.

(٥) للتفاصيل، انظر: كريم ، المصدر السابق، ص ٧٦ _ ٧٨، حسن، المصدر السابق، ص ١٣٧ _ ١٤٢.

ويبدو أن الدعوة الجزائرية – أعيان تلمسان – حفزت السلطان المغربي لأن يلعب الدور التاريخي للمغرب بتحرير الجزائر وطرد العثمانيين انطلاقا من موقف قومي وديني وتاريخي، في وقت أخفقت محاولات التعاون معهم لمواجهة التحديات الأوربية المشتركة. وفي هذا المجال يقول المؤرخ الناصري عن السلطان المغربي محمد الشيخ: ((فلما فتح أبو عبد الله الشيخ حاضرة فاس ... تاقت نفسه إلى المغرب الأوسط، وكان يعز عليه استيلاء الترك عليه مع انهم أجانب من هذا الإقليم ودخلاء فيه، فيقبح بأهله وملوكه أن يتركوهم يغلبون على بلادهم، لاسيما وقد فرّ إليهم عدو من أعدائه وعيص من أعياص أقتاله وهو أبو حسون الوطاسي. فرأى الشيخ من الرأي إظهار القوة في الحرب أن يبدأهم قبل أن يبدؤوه، فنهض من فاس قاصدا تلمسان في جموعه ألي أن نزل عليها وحاصرها تسعة شهور ... وقتل في حصارها ولده الحرّان وكان نابا من أنيابه وسيفا من سيوفه. ثم إستولى الشيخ على تلمسان ودخلها يوم الاثنين ٢٣ جمادى الأولى سنة ٩٥٧ هـ، ونفى الترك عنها وانتشر حكمه في أعمالها إلى وادي شلف ..))[٦].

إن الحضور العثماني في المغرب الأوسط (الجزائر)، وفي معظم أقطار الوطن العربي كان له وقع سلبي على عقلية السلطان المغربي محمد الشيخ ونفسيته، فلم يكن همه العمل على تحرير الجزائر من السيادة العثمانية وحسب، وإنما العمل للحيلولة دون وقوع المغرب الأدنى (تونس) بيدهم. وكان طموحه يمتد إلى اكثر من ذلك، إلى بقية أقطار الوطن العربي. وكان ذلك مبدأ واضحا في سياسته العربية منذ دخوله فاس وتحرير تلمسان واستقبال أهلها له بالطبول ومظاهر الفرح. وفي

---

(٦) أبو العباس احمد بن خالد الناصري: الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى، دار الكتاب (الدار البيضاء، ١٩٥٩)، ج٥، ص ٢٥ _ ٢٦.

تأكيد ذلك الطموح، يذكر اليفرني المعاصر للأحداث تصريح السلطان المغربي بقوله: ((لابد لي أن اذهب إلى مصر واخرج الأتراك من أحجارهم و أنازلهم في ديارهم ...)) وكان السلطان المغربي لا يسمي السلطان العثماني إلا بـ ((سلطان الحواته ...)) أي سلطان قوارب صيد الحوت. وقد أرسل السلطان العثماني سليم القانوني وفدا فلم يحفل به، وقال للموفدين: ((اخبروا صاحبكم أنى مفتح عليه بلاده ومتوجه للقائه))[٧]. ويبدوا واضحا الطموح القومي المشروع للسلطان المغربي تجاه الوطن العربي، لكنه طموح يفتقد للإمكانات البشرية والاقتصادية والعسكرية. وقد كان الأجدر بالسلطان المغربي تحقيق – ولو في الحد الأدنى نوع من التعاون مع العثمانيين ضمن إطار التضامن الإسلامي لمواجهة التحديات والاحتلالات الأسبانية والبرتغالية لسواحل المغرب بخاصة ولسواحل المغرب العربي بعامة، وهي تحديات مشتركة يقتضي العقل والمنطق مواجهتها مواجهة مشتركة.

وعى العثمانيون مخاطر الطموح المغربي، وعلى الأقل في ارتكازه على أرضية قومية ودينية وثقافية لابد من أن تلقى صدى لدى أبناء الأمة العربية لذا فقد أسرعوا إلى مواجهة السلطان في تلمسان والعمل على إبعاده عنها، وجرت معارك طاحنة بين الجانبين أسفرت عن استعادة العثمانيين للمدينة[٨].

أدرك السلطان العثماني سليمان القانوني ما ستخلفه معارك تلمسان ومصرع

---

(٧) أبو عبد الله بن عبد الله الصغير اليفرني: نزهة الحادي بأخبار القرن الحادي، صحح عباراته التاريخية، هوداس، مطبعة بردين (باريس، ١٨٨٨)، ص ٤٢.

احمد العماري: خلفيات الحدود الجيوسياسية للاتراك والفرنسيين تجاه وحدة المغرب الكبير، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد (٤)، فاس ١٩٨٥ ـ ١٩٨٦، ص ١٦٧.

(٨) العماري: المصدر السابق ، ص ١٦٨ ـ ١٦٩، المدني، المصدر السابق، ص ٣٢٨ ـ ٣٢٩، الجمل، المصدر السابق، ص ١٧١.

الأمير الحرّان بن السلطان محمد الشيخ، من أثر في نفوس المغاربة بعامة والسلطان المغربي بخاصة. ومن اجل تهدئة النفوس والأحوال بين البلدين الإسلاميين (في وقت كان يواجه فرسان القديس يوحنا في طرابلس الغرب، ويستكمل فتوحاته في أوربا) فقد حاول إلقاء التبعية في توتر العلاقات الثنائية بين الطرفين على والي الجزائر حسن باشا الذي ((.... لم يحسن المجاورة)) مع المغرب. لذا أرسل السلطان العثماني رسالة إلى السلطان المغربي تحمل تاريخ أوائل محرم ٩٥٩هـ الموافق، كانون الثاني – يناير – ١٥٥٢م جاء فيها: ((.... ولما بلغ إلى سمعنا الشريف أن أمير الأمراء بولاية الجزائر سابقا حسن باشا لم يحسن المجاورة مع جيرانه ومال إلى جانب العنف والاعتساف، ونبذ وراء ظهره طرق الوفاق والائتلاف وسد باب الاتحاد مع المجاهدين حماة الدين، لذلك بدلناهم غيره فأنعمنا بولاية الجزائر على مملوك حضرتنا العلية... صالح باشا... وأمرناه لأقامة شراع (الشرع) الشريف المتين وأحياء تواتر سيد المرسلين وصون الرعايا وحفظ البرايا... وان يكون من الأهالي الإسلام على اكمل اتحاد واجمل اتفاق مجدا فيما يتعلق بالدولة والدين وقيام ناموس سلطاننا المتين، مثابرا على دفع أعداء الدين وقمع الكفرة الفجرة المرتدين على أقصى مراد حضرتنا العلية إحياء مراسم الإسلام وإطفاء ثائرة الكفرة اللئام وذلك المرام يكون باتفاق أمراء الإسلام، واتحاد أمناء شرع سيد الأنام، ويتم به النظام وينفي آثارهم في الشهور والأعوام.... ولابد لكم أن تحسنوا المجاورة وتذهبوا طريق حسن المعاشرة مع كونكم أولاد سيد الأنبياء وأحفاد سيد الأصفياء سمعنا عدلكم وإنصافكم وبكمال التقوى وصفات الكمال اتصافكم، ولذلك كتبنا إليكم منشورا يوجب مضمونه المصافات (كذا) ويشفي مكنونه ان تكون المودة في أقصى الغايات....)).

وفي التاريخ نفسه، أرسل السلطان العثماني رسالة ثانية مع ثلاث خلع، واحدة للسلطان المغربي واثنتان لولديه. وجاء في الرسالة ما ينم عن كون السلطان العثماني يعتبر السلطان المغربي أحد ولاته. وجاء فيها: " هذا مثالنا (الشريف) أصدرناه إلى الجناب العالي حاكم فاس.... نخصه بسلام تتكمل به صلات المحبة بالتحيات الطيبات وتتأكد بعطره صلات المودة بالتسليمات الزكيات... ولذلك الشان حباك إحساننا الشريف العالي السلطان ورعاك جزيل فضلها السامي الخاقاني فأنعمنا عليك وعلى ولديك بثلاث خلع سنية لتكون صلة للمحبة منا وسببا لنسج المودة بيننا على أقصى مراد حضرتنا العلية أن تكون أهالي الإسلام وحماة دين النبي عليه السلام في أيام دولتنا العادلة في اكمل الراحة واجمل الاستراحة آمنين مطمئنين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون إن شاء الله تعالى ".أوائل محرم سنة ١٩٥٩هـ = ١٥٥٢م[٩].

وفي عام ١٥٥٣، أرسل السلطان العثماني سليمان القانوني سفارة إلى السلطان المغربي برئاسة محمد بن علي الخروبي الطرابلسي في محاولة لتهدئة الأحوال وتحديد مجالات النفوذ بين الجانبين. وقد بدا واضحا منذ البداية، ان السلطان العثماني لم يكن جادا في تهدئة الأحوال بين الجانبين والاعتراف باستقلال المغرب وسيادته في ظل السلطان محمد الشيخ. فقد ذكرت المصادر العاصرة للأحداث آنذاك، والمصادر المعاصرة الجديدة، ان السلطان العثماني اشترط في سفارته برئاسة الخروبي اعتراف السلطان المغربي بـ (الخلافة العثمانية والدعاء للسلطان العثماني على المنابر، في مقابل الاعتراف بالاستقلال التام والمطلق

---

(٩) عبد الهادي التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب منذ اقدم العصور إلى اليوم، أكاديمي المملكة المغربية، (بلا، ١٩٨٦)، ج ٨، ص١٧-٢٠.

للمغرب، وكان ذلك يعني تبعية المغرب للدولة العثمانية. كما اشترط إطلاق سراح الأسرى الوطاسيين والتخفيف عن ضيقهم، إذ لا يجوز شرعا أن يغل جماعة من المسلمين) وذلك يعني تدخلا واضحا في السياسة الداخلية، إلى جانب تحديد الحدود بين الجانبين. ولم يقبل السلطان المغربي الاعتراف بخلاف آل عثمان، ورفض تدخلهم في أمر بني وطاس، وبدا واضحا أن ثمة قبولا بتحديد الحدود[١٠].

تصاعد الصراع المغربي – العثماني:

أثبتت الأحداث بعد عام، إن النوايا العثمانية تجاه المغرب لم تكن صادقة وجادة في تحقيق السلام وسيادة حسن الجوار. وان طموح العثمانيين في ضم المغرب بقي قائما، وأنهم ميالون إلى تحقيق ذلك من خلال أبي حسون الوطاسي الذي تعهد لهم بذلك، إذ اشترط عليه والي الجزائر صالح رايس أن يدعو للعثمانيين على منبر جامع القرويين بفاس وفي سائر مساجد المغرب تعبيرا عن الولاء والطاعة، فضلاً عن نقش رسم السلطان العثماني على العملة المغربية لقاء تقديم العون له لاقتحام المغرب وإسقاط الحكم السعدى في فاس[١١].

---

(١٠) انظر بالتفصيل:

اليفرين، النزهة، ص ٤١ _ ٤٢، الناصرى، المصدر السابق، ج ٥، ص ٢٧ _ ٣٢، العمارى، المصدر السابق، ص ١٦٩، المدني، المصدر السابق، ص ٣٣٠ _ ٣٣١.

(١١) أبو القاسم احمد الزياني: الترجمانة الكبرى في أخبار المعمورة برا وبحرا، تحقيق وتعليق عبد الكريم الفيلالي، (المغرب، ١٩٦٧)، ص ٩١

التازى، التاريخ الدبلوماسي، ج٧، ص ٣١٧، المدني، المصدر السابق، ص ٣٤١.

عبد العزيز عبد الله: انتصار المغرب في وادي المخازن أنقذه من حرب صليبية عارمة، مجلة دعوة الحق، العدد (٨)، آب _ أغسطس، الرباط ١٩٧٨، ص ٣٧ _ ٣٩.

الفاسي، احتلال البرتغاليين ...، ص ٢١ _ ٢٣.

استعد العثمانيون بقواتهم البحرية والبرية لمساندة أبي حسون الوطاسي في أيار – مايو – ١٥٥٣. وقد استطاع أبو حسون السيطرة على بادس، وتقدم نحو الداخل مع القبائل المنضمة تحت لوائه، وجرت إصطدامات عسكرية، مع قوات السلطان محمد الشيخ، إلا أن الهزيمة لحقت بالقوات السعدية، وانفتح المجال أمامهم نحو داخل المغرب إلى تازة حتى وصلوا أطراف العاصمة فاس. وقد أوضح المؤرخ المغربي الفشتالي المعاصر للأحداث طبيعية تطورات الغزو العثماني للمغرب بقوله: ((.... حتى إذا كان زحف صالح رايس من الجزائر بجنود الأتراك مع الأعور أبو حسون المريني – الوطاسي – مستنفرهم، على حين ما كان الأمام رضي الله عنه منفردا عن جنوده أنصار الدولة بما كان أطلقهم منذ فتح مدينة فاس لمواطنهم بالسوس ومراكش.... واكتفى بجنود بني مرين الذين اصطنعهم بمعروفه واصطفاهم لخدمته بفاس. وكان هؤلاء الأعراب ممن عليه المدار منهم. فزحف بهم من فاس تلقاء العدو معولا عليهم في الدفاع ومعتمدا بغنائهم عاملا على ما خولهم من نعمته واحتقارا لشان الأعور بو حسون مستنفر الأتراك .... وعندما التقى الجمعان بكدية المخالي من ساحة فاس، ودارت رحى الحرب فلاحت بارقة الظفر والظهور للإمام رضي الله عنه، فزحزح الأتراك عن مراكزهم واستولى على مدافعهم، لم ينشب أن انفضت كتائب بني مرين من حوله قاطبة لا نطوائهم على النكث وتواطئهم على الغدر، فلحقوا ببو حسون وقلبوا ظهر المجن للإمام رضي الله عنه. وقد تركوه في حومة الوغى وحده في الفئة القليلة من أنصاره. فكان خذلان العصابة المرينية سبب نكوصه رضي الله عنه ولحاقه بمراكش))[١٢]. وبدأت بعدها القوات العثمانية تتقدم لاحتلال فاس.

---

(١٢) أبو فارس عبد العزيز بن محمد الفشتالي: مناهل الصفا في أخبار الملوك الشرفا، تحقيق عبد الله كنون،-

شعر الأسبان والبرتغاليون بالخوف من سيطرة العثمانيين ومن خلال أبي حسون على العاصمة المغربية فاس، إلى جانب المناطق الساحلية القريبة من مراكز احتلالهم. وقد جاء ذلك من خلال الوثائق الإسبانية نفسها، ففي رسالة الملك البرتغالي جان الثالث إلى الإمبراطور الإسباني شارلكان، ما يدل على القلق والخوف، ويحثهُ على التدخل ليحول دون توطيد العثمانيين لنفوذهم في المغرب، لان ذلك ((يشكل خطرا كبيرا على مصالح الأمتين))[١٣].

واصل أبو حسون الوطاسي تقدمه إلى فاس بمساندة القوات العثمانية حتى دخلها بعد قتال دام في ٨ كانون الثاني – يناير – ١٥٥٤. وحال استقراره في العاصمة فاس تأكدت التطلعات العثمانية. فقد أظهرت القوات العثمانية سطوتها وسيطرتها، وبدأوا الإساءة لأهالي فاس، فعم الاستياء منهم بشكل كبير. ولم يقف الأمر عند ذلك، فقد حاولوا الإطاحة بابي حسون وإعلان تبعية المغرب للسلطان العثماني سليمان القانوني، إلا أن مساعيهم فشلت، فقد وقف الأهالي إلى جانب أبي حسون، وحالوا دون مخطط الاحتلال. وفي الحال تم إبعادهم إلى الجزائر بعد أن دفع لهم أبو حسون تعويضات كبيرة، وفي الوقت نفسه، استغل السلطان السعدى ترحيل القوات العثمانية، فاستعان باتباعه من قبائل السوس الجنوبية، وهاجم

- المطبعة المهدية، (تطوان، ١٩٦٤)، ج ١، ص ١٠٩.

إبراهيم حركات: المغرب عبر التاريخ، دار الرشاد الحديثة، (الدار البيضاء، ١٩٧٨)، ص ٢٠٧ – ٢٠٨.

كرفجال، المصدر السابق، ص٤٨٣ – ٤٩٠، البخلاخي، المصدر السابق، ص ٢٣ ٢٤، العامرى، المصدر السابق، ص ٢٢٢، كريم، المصدر السابق، ص ٨٠ – ٨١، التازى، التاريخ الدبلوماسي، ج ٨، ص ٢٣ – ٢٤، حسن، المصدر السابق، ص ١٤٤ – ١٤٦، الجمل، المصدر السابق، ص ٧١.

(١٣) المصادر الأولية لتاريخ العرب، المجموعة الأولى، إسبانيا، ج ٢ ص ١٧١، نقلا عن: كريم، المصدر السابق، ص ٨١.

العاصمة في أيلول ـ سبتمبر ـ ١٥٥٤، ودارت بين الجانبين معارك طاحنة راح ضحيتها ألفان من المغاربة، وقتل أبو حسون الوطاسي، وسيطر السلطان السعدى ثانية في ٢٣ أيلول ـ سبتمبر ـ ١٥٥٤، فاستأنف السعديون حكم المغرب لأكثر من قرن(١٤).

كان للدعم العسكري العثماني لأبي حسون الوطاسي أثره الكبير في ازدياد حدة التوتر في العلاقات المغربية ـ العثمانية، وفي الوقت نفسه استمرار المواجهة مع المحتلين الأسبان والبرتغاليين. وقد اجتهد السلطان المغربي في العمل على إسكات أحد الطرفين. وقد مال إلى تهدئة الأحوال مع الأسبان والبرتغاليين منذ نهاية عام ١٥٥٤. وقد استغل الجانبان هذا الميل المغربي للعمل على إبقاء حالة التوتر وتصعيدها بين القوتين الإسلاميتين(١٥). ويبدو من توجه السلطان المغربي نحو الأسبان والبرتغاليين انه كان محاولة للحصول على أسلحة ومواد حربية متطورة تضاهي الأسلحة العثمانية وتتفوق عليها. وقد أدرك أن الأسبان والبرتغاليين مستعدان لتلبية المطلب المغربي، في الوقت الذي كانا (ولا سيما الأسبان) في صراع بحري وبري مستمر مع العثمانيين في البحر المتوسط، وفي تونس ووهران

---

(١٤) للتفاصيل عن الأحداث، انظر:
ابن منصور، المصدر السابق، ج ١، ص ٤١١، التازى، التاريخ الدبلوماسي، ج٨، ص ٢٣ ـ ٢٤، البخلاخي، المصدر السابق، ص ٢٥، كرفجال، المصدر السابق، ص ٤٨٦ ـ ٤٨٧، كريم، المصدر السابق، ص ٨١ ـ ٨٢، حركات، المصدر السابق، ص ٣٤١، الجمل، المصدر السابق، ص ١٧١، حسن، المصدر السابق، ص ١٤٧ ـ ١٤٨.

(١٥) انظر بالتفصيل: الناصرى، المصدر السابق، ج ٥ ص ٣٢ ـ ٣٤، حركات، المصدر السابق، ج ٣ ص ٣٤١ ـ ٣٤٢، كريم، المصدر السابق، ص ٥٣ ـ ٨٤، الغربي، المصدر السابق، ص ٩١ ـ ٩٢، التازى، التاريخ الدبلوماسي، ج ٨ ص ٢٥ ـ ٢٩، البخلاخي، المصدر السابق، ص ٢٧ ـ ٢٩.

والمرسى الكبير في الجزائر، إلى جانب استمرار التوتر في الخليج العربي بين العثمانيين والبرتغاليين.

أدرك العثمانيون خطر التوجه المغربي نحو الأسبان والبرتغاليين ومحاولة عقد هدنة بين الطرفين. لذا ساد ميل عثماني إلى تهدئة الأحوال مع المغرب انطلاقا من التحيات المشتركة، وإفشالا لمحاولات عقد الهدنة، في الوقت الذي كان الصراع على أشده. بين العثمانيين وأوربا برا وبحرا. وانطلاقا من ذلك، بعث السلطان العثماني سليمان القانوني سفارة ثانية إلى السلطان المغربي برئاسة ابى عبدالله الخروبي الذي كان يقيم في الجزائر، لتهدئة الحالة بين الجانبين، فاكرم السلطان المغربي وفادته. إلا أن اللقاء لم يثمر عن نتيجة، فقد كانت مواقف السعديين واضحة من العثمانيين كما سلف القول(١٦).

ومع استمرار المفاوضات المغربية – الأسبانية البرتغالية في أثناء الفترة ١٥٥٥- ١٥٥٧، والتي هدأت الأحوال بين الطرفين – مؤقتا – فقد بعث السلطان العثماني سليمان القانوني إلى السلطان المغربي محمد الشيخ رسالة بتاريخ ١٠ آذار – مارس – ١٥٥٧، يعده بمساعدته لمحاربة الأسبان والبرتغاليين بشرط أن يعترف بالسيادة العثمانية. وذكر المؤلف المجهول لتاريخ الدولة السعدية تفاصيل السفارة العثمانية بقوله: ((... فانه لما كان محمد الشيخ بفاس وفد عليه رسول للسلطان سليمان ليهنئه ويعلمه بما كان عليه بنو مرين – يقصد الوطاسيين – من الهدايا والوداد والمحبة والميل إليه والرغبة فيه وانه في نصرتهم. فسكت ولم يجبه بشيء وبقي عنده إلى أن طال جلوس الرسول فطلب منه أن يسرحه، فقال له محمد الشيخ،

---

(١٦) المعمارى، المصدر السابق، ص ١٦٩.

سلم على أمير القوارب سلطانك وقل لـه أن سلطان المغرب لابد أن ينازلك على محمل مصر ويكون قتاله معك عليه ان شاء الله ويأتيك إلى مصر والسلام)). ومن هذا يستدل على أن السلطان المغربي كان يشعر بالاستياء من السيادة العثمانية على الوطن العربي ((وانه لم يكن يرى شرعية الخلافة العثمانية، كما يعكس لنا الجواب أيضا طموحه في إمامة المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها))[١٧].

كان أمر المفاوضات المغربية ـ الأسبانية قد افتضح عن طريق المترجمين اليهود، وفي الوقت نفسه كان الموقف المغربي واضحا من السلطان العثماني وسيادته على الوطن العربي. وعليه، فقد تهيأ السلطان سليمان القانوني ـ بعد رجوع الوفد إلى استانبول ـ للعمل على إرسال قوة بحرية كبيرة وبالتعاون مع القوات الموجودة في الجزائر، لمهاجمة المغرب بقيادة درغوت باشا أمير البحر، وحسن خير الدين والي الجزائر (١٥٥٦ ـ ١٥٦٧)، وقد نصح بعدم اللجوء إلى العمل العسكري واللجوء إلى المكيدة للإطاحة بالسلطان المغربي محمد الشيخ ـ والذي لم يكن قد عقد اتفاقا مع الأسبان ـ فأوفد اثني عشر من رجاله ادعوا أنهم فروا من الحكم العثماني. وقد استطاع أعضاء الجماعة ((الفارة)) أن يكسبوا حظوة لدى السلطان المغربي. وانضموا إلى الحرس العثماني الخاص به ـ وهم جزء من القوات العثمانية التي فضلت البقاء في فاس والتعاون مع محمد الشيخ بعد مقتل أبي حسون الوطاسي ـ وقد كسبت الجماعة ثقة السلطان المغربي فقربهم إليه، لكنهم سرعان ما نفذوا به مهمتهم الموكلة لهم، فاغتالوه بقطع رأسه يوم ٢٣ تشرين الأول ـ أكتوبر ـ ١٥٥٧، وفروا به عن طريق تلمسان إلى العاصمة العثمانية أستا نبول

---

(١٧) مؤلف مجهول: تاريخ الدولة السعدية ، ص ٢٧، نقلا عن: كريم، المصدر السابق، ص ٨٤ ـ ٨٥، وانظر كذلك: الناصري، المصدر السابق، ج ٥، ص ٣٢، التازي: التاريخ الدبلوماسي، ج ٨، ص ٨، ٣١.

حيث علق بقفص حديدي على باب إحدى القلاع[١٨].

ان اغتيال السلطان المغربي محمد الشيخ يؤكد طموح العثمانيين الجاد لإخضاع المغرب لسيادتهم، لاستكمال سيطرتهم على المغرب العربي. وإلا بم نفسر كل تلك التحشيدات البحرية والبرية لمهاجمة المغرب في حين كانت فيه مدينة وهران، وتونس تعانيان وطأة الاحتلال الأسباني والقوى المحلية المتعاونة معهم؟

تولى الحكم في المغرب ولده السلطان عبد الله الغالب بالله (١٥٥٧ – ١٥٧٤)، فيما استمرت العلاقات المغربية العثمانية متوترة، وقادت إلى ردة فعل سريعة وغير مدروسة تجاه القوى الأوربية. فقد بدأت تتوسع سياسة التهدئة مع البرتغال والأسبان، ودفعه الخوف من العثمانيين إلى توسيع علاقاته الأوربية ولكن بشكل يسيء إلى الاستقلال والسيادة المغربية. وقد جاء ذلك نتيجة للغزو العسكري العثماني في مطلع نيسان – أبريل – ١٥٥٨، حيث اخترقت القوات العثمانية من تلمسان الحدود المغربية وتقدمت نحو فاس، لكن الدائرة دارت على الجيش العثماني في وادي اللبن، وهزمت القوات العثمانية، وفر والي الجزائر حسن خير الله إلى بادس وقام بتحصينها اكثر خوفا من هجوم مغربي أو إسباني وبرتغالي. وقد استغل الأسبان هزيمة القوات العثمانية، فشنوا من وهران هجوما على مدينة مستغانم إلا

---

(١٨) اليفرني، نزهة الحادى، ص ٤٣ – ٤٤، الناصرى، المصدر السابق، ج ٥ ص ٣٢ – ٣٤، كريم، المصدر السابق، ص ٨٥، التازى: تاريخ المغرب، ج ٨ ص ٣٠ – ٣٢

أنهم فشلوا، وكان ذلك في آب – أغسطس – ١٥٥٨[١٩].

بعد ذلك الغزو العثماني، استعد السلطان عبدالله الغالب لاسترضاء بعض المطالب الأوربية لتهدئة الحالة في البلاد والتفرغ لمواجهة العثمانيين. ويبدو انه أيقن استحالة – ضمن الظروف العسكرية والاقتصادية آنذاك – طرد الأسبان والبرتغال من المناطق الساحلية المحتلة، لهذا – وتحت الضغط العثماني – سعى إلى تهدئة الحال بالاتجاه الذي يبعدهما من توسيع المناطق المحتلة، ومن ثم الدخول في صراع ثنائي قد يقود إلى ما هو أسوا. لذا جاءت علاقاته الأوربية لتخدم أهون الشرين.

فاوض السلطان المغربي سفير نافارة (فرنسا) انطوان دوبون Antoine Doubon عام ١٥٥٩ في شأن القصر الصغير. كما رفع الحصار عن مدينة الجديدة التي احتلها البرتغاليون عام ١٥٦٢. ووسع العلاقات التجارية مع بريطانيا. وأطلق يد الأسبان في جزيرة بادس التي احتلها العثمانيون منذ أيام أبي حسون الوطاسي[٢٠].

استمر السلطان المغربي في موقف الدفاع والتصدي لأية محاولة للتوسع العثماني باتجاه المغرب، لكنه لم يحاول الهجوم على العثمانيين في الجزائر، وتفرغ

---

(١٩) الناصري، المصدر السابق، ج٥ ص٤٩، كريم، الصدر السابق، ص٨٦- ٨٧، التازي، التاريخ الدبلوماسي، م٨ ص٩، ٣٤، ٣٥، حسن، المصدر السابق، ص١٨٢ ـ ١٨٣.

(٢٠) محمد العربي الخطابي: نضال المغرب في الحقل الدولي في سبيل استرجاع أراضيه، مجلة دعوة الحق، العدد (٢-٣)، تموز- يوليو- ١٩٧٥، ص١٦٦، التازي: التاريخ الدبلوماسي، م٨ ص٣٥، كريم، المصدر السابق، ص٨٧-٩٣.

لتهدئة الأحوال الداخلية. وحاول الحفاظ على هدوء العلاقات مع الأسبان والبرتغال. وقد سكت عن الأسبان حينما طردوا العثمانيين من بادس عـام ١٥٦٤. فقد رأى إن خير وسيلة لعرقلة الملاحة العثمانية بين بادس وطنجة، هي التنازل عنها، فيما سعى ولده محمد المتوكل إلى إغاثة المدينة قبل استيلاء الأسبان عليها، لكن الأسبان سبقوه في الدخول واحتلال المدينة وجزيرتها[٢١]. وبدأت بعدها مرحلة من العمل السياسي في العلاقات المغربية – العثمانية ولكن إلى حين.

---

(٢١) المدني، المصدر السابق، ص٤٠٢.